3

القوات المصرية في حرب القرم.. والحرب الروسية التركية

(١٨٧٧م ـ ١٨٧٨م)

كانت الإمبراطورية العثمانية تضم خلال الحروب التي خاضتها ضد روسيا ، وحدات عسكرية من البلاد الواقعة تحت سيطرتها، ومن بينها مصر. حدث ذلك خلال حربي النصف الثانى من القرن التاسع عشر، عندما واجه الجنود المصريون القوات الروسية .

شارك في حرب الشرق أو "حرب القرم" (١٨٥٣ـ١٨٥٦) من الجانب التركى حوالي ٥٠٠ ألف شخص . فقد كان عدد الجيش العامل ١٤٠ ألف جندي ، وجنود الاحتياط ١٤٠ ألف جندي، والقوات غير النظامية ٧٠ ألف جندي ، ووحدات مساعدة ١١٩ ألف جندى وضمت القوات من الفئة الأخيرة ١٠ آلآف جندي من ألبانيا ، و٣٠ ألف جندى من البوسنة والهرسك ، و٦ آلآف من فلاخيا ومولدافيا و٢٠ ألفاً من صربيا ، و١٩ ألفاً من تونس وطرابلس الليبية و ٤٠ ألف جندى من مصر. وبلغ إجمالى الجنود المصريين المشاركين في حرب الشرق حوالى ٥٠,٧ ألف شخص[٧٥].

كانت الوحدات العسكرية المصرية المشاركة في تلك الحرب، تحت لواء الجيش التركى أحفاد عصر "محمد على باشا" (١٨٠٥ـ١٨٤٨). تكون ذلك الجيش لأول مرة من الفلاحين المصريين ، وقام بتدريبه أفضل الخبراء الأوروبيين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والروس والبولنديين وغيرهم ، وتم تزويده بالأسلحة الحديثة من أوروبا،

(٧٥) عن مقالة : «Египетские войска в Крымской и Русско-турецкой войнах (1877-1878 гг)»، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرق الرروسي Goryachkin Gennady ، عمر طوسون «الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم» (١٨٥٣- ١٨٥٥) طبعة القاهرة ١٩٩٣ صـ ٢٤٥.

ومن الصناعة المصرية ، وإكتسب صلابة وخبرة حربية جيدة، أثناء الحملات الكثيرة للباشا خارج الحدود .

كانت أول "نجدة" تتألف من جنود الإحتياط . و قد أرسل إلى الجبهة الروسية – التركية ٦ كتائب مشاة قوامها (١٥,٧ ألف جندى) ، وفوج واحد من سلاح الفرسان قوامه (١,٣ ألف) ، وكتيبة مدفعية قوامها (٢,٧ ألف جندى) مكونة من ١٢ بطارية مزودة بـ ٧٢ مدفعاً وكان العدد الإجمالي لتلك القوات يقدر بـ ١٩,٧ ألف شخص[٧٦] .. كانت تلك القوات تحت قيادة "سليم فتحي باشا" تلميذ "سليمان باشا" الفرنساوى رئيس أركان الجيش المصري في عهد " محمد علي " . وخصصت القاهرة ١٢ بارجة مجهزة بـ ٦٤٢ مدفعاً وطاقماً يبلغ عددها ٦,٩ ألف بحار[٧٧] . تولى قيادة الأسطول المصري "حسن باشا الإسكندرانى" الذي درس العلوم البحرية في فرنسا، ومازال في الإسكندرية شارع يحمل اسمه .

قبل إبحارهم قدم "عباس باشا" إلى الإسكندرية؛ لاستعراضهم . وخطب فيهم ، وحثهم على القيام بالواجب؛ ليشرفوا بلدهم ويرفعوا شأنها ويشرفوا أيضًا قدر أنفسهم[٧٨] وقد أطلق الجنود صيحات التأييد للتعبير عن ترحيبهم بخطابه، و غير ذلك لم يكن ممكنا. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالنظام العسكري، أو مشاعر الرعية المخلصة للحاكم بل شنت "تركيا" والموالين لها الحرب ضد روسيا باسم الإسلام ضد الكفار . وقد عبر الشاعر الكبير "محمود سامى البارودي"[٧٩] الذي شارك في حرب الشرق ، وأصبح فيما بعد رئيس وزراء مصر عن هذه المشاعر بحماس منقطع النظير .

في ١٤ أغسطس عام ١٨٥٣ وصل الأسطول المصري إلى إسطنبول . ولسخرية القدر تمركز الفيلق المصري في نفس المكان، الذي كان يعسكر فيه الجيش الروسي منذ ٢٠ عاماً مضت ، والذي قدم إلى هنا بناءً على طلب السلطان "محمود" للحيلولة دون إستيلاء القوات المصرية على اسطنبول . وقد أولى السلطان "عبد المجيد" القوات المصرية اهتماماً خاصاً، وتفقدها بنفسه على الرغم من أنه لم يحظ بهذا التكريم من قبل أحد حتى الجيش التركى نفسه .

---

٧٦ المرجع نفسه صـ ٤٧ ، ٩٣- ٩٦ .
٧٧ المرجع نفسه صـ ٤٧ .
٧٨ المرجع نفسه صـ ٩٢-٩٣ .
٧٩ أريكة (مجموعة مقالات) «محمود سامى البارودى»، الجزء الأول. القاهرة ، ١٩٥٤ صـ ١٣١-١٤١.

قدم الضباط والجنود المصريين التحية للسلطان بصوت جهوري. وقد أنعم السلطان على كل قائد من القواد، بعلبة للتبغ مرصعة بالماس، وعلى كل ضابط براتب شهر، وكان "عباس باشا" قد أمر بصرف مرتب ثلاثة شهور مقدماً، للجنود والضباط قبيل مغادرتهم الأراضي المصرية إلى جبهة القتال.

بعد عدة أيام من حفلة التكريم الرائعة، تم إرسال الجيش المصري على متن البوارج إلى جبهة الدانوب، حيث كُلف بمهام قتالية. وإنضم الأسطول المصري إلى أسطول التحالف، والذي تواجد بشكل فعلي في سبتمبر عام ١٨٥٣ داخل "مضيق البوسفور". وبلغ عدد الجيش التركي وفقا للجنرال "بتروف" مؤلف كتاب - التاريخ الرسمي لحملة الدانوب والمشاركين فيها - على الضفة اليمنى لنهر الدانوب، في الأول من أكتوبر من عام ١٨٥٣ مائة وخمسين ألف جندي، كما قدرت القوات الروسية بمثل ذلك العدد تقريبا [٨٠].

وقع أول صدام عسكري بين وحدات الجيش المصري والروسي في أكتوبر (التقويم الجوليانى) عام ١٨٥٣ في "روميليا". وفي الرابع من نوفمبر، وبالقرب من مدينة (أولتنيتزا) جرت وقائع معركة طاحنة، دامت لمدة ثلاثة أيام. ووفقاً "لعمر طوسون" فإن الجنود المصريين أظهروا بسالة نادرة، وشجاعة فائقة، كما أكدت المصادرا الروسية على هذه الحقيقة: "لقد كانوا بالفعل أفضل القوات التركية". خلفت هذه المعركة عدة مئات من الجرحى والقتلى من كلا الجانبين، ووفقاً لكثير من المصادر.. فقد كانت الخسائر في صفوف القوات الروسية أكثر [٨١] من خسائر الجانب المصري.

تسلم "عباس باشا" بعد فترة وجيزة أمراً من الباب العالى بإرسال "النجدة" الثانية، وعلى الفور أرسل ثلاثة كتائب من المشاة، وسلاح الفرسان والمدفعية (تقدر بشكل عام بـ ٩,١ ألف شخص)، والتي وصلت إلى إسطنبول في أول أبريل عام ١٨٥٤، ومن هناك أرسلوا إلى اليونان؛ لقمع الإنتفاضة التي اندلعت هناك. وقد غرقت الإنتفاضة في بحور من الدماء على أيدي قوات الجيش التركي - المصري.

أثناء المعارك الدائرة على جبهة الدانوب بدأ أسطول البحر الأسود الروسي يجوب الجانب الغربي للبحر الأسود بهدف إعتراض السفن التركية. وفي الخامس من أكتوبر ١٨٥٣ دخلت الفرقاطة الحربية "فلاديمير" معركة ضد البارجة المصرية "برفاز بحرى"

٨٠ «أ.ن. بتروف» الحرب الروسية ضد تركيا. حملة الدانوب عام ١٨٥٣- ١٨٥٤، سانت بطرسبورج، ١٨٩٠. صـ ١٢٥.

٨١ عمر طوسون. المرجع السابق صـ ١٥٤ : بتروف، المرجع السابق صـ ١٥٣.

وأجبرتها على إنزال العلم ، وأسرت ٩٣ بحاراً ، وسحبوها إلى " سيفاستوبول " [٨٢] .

وقع الصدام البحري الأكثر أهمية بين الأسطول الروسي والأسطول " التركي – المصري " في " سينوب " الواقعة على الشاطيء الغربي للبحر الأسود ، والتي حولها الإنجليز والأتراك قبل حرب القرم ، إلى واحدة من القواعد الثانوية للسفن التي تنقل الأسلحة والذخيرة لشامل (الإمام شامل الداغستاني قائد سياسي وديني آفاري في شمال القوقاز وأحد أشهر المقاومين للوجود الروسي في القوقاز ـ المترجم د. محمد رياض) . وهناك كان يتم نقل الشحنات من السفن الكبيرة إلى مراكب الساحل ذات الصارى الواحد، التي كانت تبحر إلى ساحل القوقاز . ما إن علمت القوات الروسية بهذا الأمر حتى حاصرت جزءاً كبيراً من الأسطول العثماني في " سينوب " والمكون من ١٦ بارجة مزودة بـ ٤٧٦ مدفعاً وأربعة وأربعين مدفعاً من مدافع القلاع على ٦ بطاريات ساحلية و أربعة الأف جندى تم إنزالهم في باتومي كمددٍ لجيش الآناضول.

قبيل بدء المعركة، عرض الأدميرال " ناخيموف " على العدو الاستسلام ، وهو الأمر الذي قوبل بالرفض . كانت السفن التركية تفتقر مدفعيتها للمناورة، وأقل شأنا من السفن الروسية في التصنيف والقوة ؛ فتكبدت خسائر فادحة ، ودمرت سفنها الواحدة تلو الأخرى .

كانت الفرقاطة المصرية " دمياط " من بين السفن التي تعرضت للهجوم ، وكان على متنها ٥٦ مدفعا وطاقماً مكوناً من ٥٠٠ شخص بقيادة " أحمد إبراهيم بك " . وبعد معركة قصيرة، أعلنت الفرقاطة استسلامها، ووقع في الأسر أكثر من ١٠٠ أسيراً وكشفت التحقيقات التي أجرتها القوات الروسية النقاب عن أن " القادة والضباط قد غادروا السفينة متجهين إلى الشاطىء ، وهم يجرون أذيال الخزي والعار " وفقد الأسطول العثماني ٢٠٪ من سفنه و١٢٪ من قوة النيران [٨٣] .

كانت تلك أكبر كارثة للأسطول المصري أثناء حرب القرم فقد ، تحطمت بارجتين من بوارجه في نهاية أكتوبر ١٨٥٤، خلال عودتهما إلى اسطنبول للصيانة، حيث هب إعصار مدمر ، وأعاق الضباب الكثيف طريقهما ، وحال دون دخولهما إلى مضيق "البوسفور". وبالقرب من المدخل تزايدت قوة الإعصار، فإصطدمت البارجتان " مفتاح الجهاد " و " البحيرة" بعضهما ببعض، ولحقت بهما أضرار جسيمة أدت إلى غرقهما ، ومن على متنهما من بحارة، والذين يقدرون بحوالى ١٩٢٠ شخص ، وكان من ضمنهم قائد الأسطول

٨٢ «زفريف» نصر سينوبسكايا، سيمفيروبول، ١٩٥٤. صـ ٤٦.
٨٣ المرجع نفسه ، صـ ٩٦- ١٣٠.

المصري "حسين باشا الإسكندراني" و"محمد شناب بك" وهو واحد من أفضل البحارة المصريين ونجا فقط ١٣٠ شخص [٨٤].

في نفس الوقت، لم تتوقف المعارك على جبهة الدانوب، حيث كان يهدف القادة الروس من هذا الهجوم إلى الاستيلاء على قلعة "سيلسترا" على الضفة اليمنى لنهر "الدانوب" في المرحلة الأولى. وقد دارت هناك تحديداً معركة طاحنة بين القوات المصرية والروسية لأهمية "سيلسترا" للجيش الروسي، حيث أنها كانت تعد مفتاحاً "لفلاخيا".

كانت "طابية العرب" أهم حصن في "سيليسترا". وكان من المستحيل بدون السيطرة عليها الاستيلاء على القلعة بأكملها. وقد أطلقوا عليها هذا الاسم إذ كانت هناك أربعة كتائب مصرية تتولى الدفاع عنها. عدا ذلك، كان يتواجد داخل الحصن أعداد لا تذكر من الأتراك و٥٠٠ ألباني، وكانت القوات المصرية والألبانية تخدمان تحت قيادة "حسين بك"، وأما عن باقي الوحدات المصرية فكانت متمركزة داخل القلعة.

في العاشر من مايو عام ١٨٥٤ م، كانت القوات الروسية قد تمكنت من نشر بطارياتها بطول النهر، بعد أن فرضت سيطرتها على بعض الجزر في نهر "الدانوب" بمواجهة "سيلسترا"، وفي التاسع عشر من مايو أجرت القوات الروسية أول عملية إستطلاع للحصن العربي وقصفته في اليوم التالي بنيران ٧٢ مدفعاً. وفي الحادي والعشرين من مايو نفذت أول هجوم على الحصن، فتم التصدى له وتكبدت القوات المهاجمة خسائر فادحة.

بعد أن قامت القوات الروسية خلال أسبوع بإعادة تجميع وزيادة القوات والمعدات، قررت شن هجوم متواصل على الحصن. وبالفعل هاجمت الحصن ثلاث مرات متلاحقة، غير أن الحامية المصرية كانت تظهر في كل مرة من المرات بطولة منقطعة النظير في صد هجوم المعتدين. نجحت القوات الروسية في اجتياز الخندق العميق المحيط بالحصن، وبدأت في تسلق ساتر الحصن شديد الانحدار إلا أن القوات المصرية أجبرتها على الرجوع للخندق. ضف إلى ذلك أنه في اليوم التالى أغار الفرسان المصريون على مواقع القوات الروسية على حين غرة وأبعدتهم عن الحصن. ووفقاً للتقارير الحربية، فإن القوات الروسية فقدت ما يقرب من ١٥٠٠-١٨٠٠ جندى في هذا الهجوم. وابتداءً من الحادى والثلاثين من مايو قامت مدفعية الحصار الثقيلة، وكذلك مدافع أسطول الدينبر بصب نيرانها الهائلة على القلعة وطوابيها. وكانت الضربة الرئيسة موجهة بالأساس إلى طابية العرب. وتم

٨٤ «عبد الرحمن الرافعى» عصر اسماعيل، الجزء الأول. القاهرة ١٩٨٧ صـ ٤١.

الحفر تحت السور الرئيس للقلعة بهدف، زرع الألغام ، غير أن المصريين علموا بالأمر وحالوا دون تفجير الجدار . كان الاقتحام الأخير للحصن، سيتم تنفيذه فجر يوم الحادي والعشرين من يونيو ، ولكن في منتصف الليل من تلك الليلة قرر القائد الأعلى "باسكيفيتش" رفع الحصار عن القلعة ، وأصدر أوامره للقوات بالانسحاب من الحصن [٨٥] .

الأسباب التي دفعت القوات الروسية للانسحاب، لم تكن أسباباً عسكرية بقدر ماكانت نتيجة تقديرات سياسية خاطئة جسيمة من جانب القيصر "نيقولا الأول" في تقييم سياسة "النمسا" و"بروسيا" . وحتمت التغيرات السريعة في تطور العلاقات النمساوية- البروسية ، والنمساوية- التركية فك الحصار الفوري عن "سيليسترا" انسحاب القوات الروسية من إمارات الدانوب . وهذا ما حدث بالضبط .

في الرابع عشر من يوليو ١٨٥٤ ، توفي "عباس باشا" وحل محله والى جديد، هو "سعيد باشا" والذي صدر بشأنه مرسوم الباب العالي ، بإرسال النجدة الثالثة لتنضم للقوات التركية في القرم . وحسب إرادة السلطان فقد اشتملت التعزيزات هذه المرة على ٦ أفواج مشاة (١٢,٦ ألف جندى) ، وكتيبة فرسان (١,٢ ألف) وستة بطاريات مدفعية مسلحة بستة وثلاثين مدفعا [٨٦] .

في الرابع عشر من سبتمبر ١٨٥٤ بدأت أكثر من ٣٠٠ سفينة نقل تحت غطاء من السفن الحربية، عملية إنزال للقوات الإنجليزية والفرنسية والتركية في "إيفباتوريا" [٨٧]. وفي الرابع من أبريل ١٨٥٥ ، تم إرسال قوات مصرية من إسطنبول إلى إيفباتوريا ، بقيادة القائد العسكري البارز "المنيكلى باشا" الذي حصل على وسام "المجيدى" ، لدفاعه عن "إيفباتوريا" .

قام "سعيد باشا" بتشكيل نجدة جديدة من أجل الباب العالي ، وأصدر أمراً بزيادة رواتب الجند، وتقدر الزيادة للأفراد وضباط الصف ما يوازي نصف مرتباتهم الشهرية وثلث المرتب الشهرى للملازمين الأول ، والملازمين ، وربع المرتب الشهرى للنقباء، والرواد ، وخمس المرتب الشهري للمقدمين والرتب الأعلى .

٨٥ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية ملف٤٠١ ، مرجع سابق ، حافظة ٤ ، وثيقة ١٠، صـ ٨- ١٠، حافظة إضافية ٤٩٩ ، نفس المرجع ، السطر ٦-٧ ، «عمرطوسون» المرجع نفسه ، صـ ١٤٧- ١٥٤ .

٨٦ «عمر طوسون» المرجع السابق صـ ١٨١ .

٨٧ أوديسا الجريدة الرسمية . أوديسا, عدد ١٣١ ، ١٨٥٥ .

كانت مهمة تلك القوات (جنباً إلى جنب مع الأتراك) هى الحفاظ على "إيفباتوريا"، كرأس حربة لشن الهجمات من جانب قوات الحلفاء في عمق شبة جزيرة القرم. وبلغ عدد حامية المدينة ٤٠ ألف شخص، منهم ٥ أفواج مشاة مصرية بلغ عددهم ١٥ ألف جندي[٨٨].

وفقاً لما جاء على لسان المؤرخ المصري "عبد الرحمن الرافعى" "إن" معارك الدفاع عن "إيفباتوريا" كانت عنيفة جداً. وكان أول صدام بين الوحدات المصرية والجيش الروسي قد تم في الفترة من ١١-١٨ فبراير عام ١٨٥٥. وعلى الرغم من الهجوم القوى للقوات الروسية، بقيادة الجنرال "خروليف" فإن نيران المدفعية التركية المصرية قد ألحقت بهم أضراراً جسيمة، وأجبرتهم على التراجع. ويذكر أن الجانب الروسي خسر ما يقرب من ٥٠٠ جندى في هذه المعركة أما من الجانب المصري والتركي فقد قتل أكثر من ١٠٠ جندى، وجرح ما يقرب من ٣٠٠ جندى[٨٩]. وفي يوم الثامن والعشرين من فبراير قتل قائد القوات المصرية "سليم باشا فتحى" أثناء هجوم ليلى مباغت للقوات الروسية في "إيفباتوريا". اُعتبرت وفاة القائد بمثابة خسارة فادحة للجيش، وكان وقعها ثقيلا على الجنود والضباط. وكتب "الرافعي"[٩٠] في رثائه تلك الكلمات: "تلقت مصر نبأ وفاته بالحسرة و الألم، فقد فقدت رجلاً شريفاً وقائداً نادراً في صفاته وقدراته. دفن "سليم باشا" في "إيفباتوريا" و نصب تمثال برونزي فوق قبره. كما توفي أيضاً في هذه المدينة اثنان من قادة كتائب المشاة المصرية.

في يونية عام ١٨٥٥ تم نقل ١٠ آلآف جندي تابعين للجيش المصري- التركي إلى مشارف "سيفاستوبول" عند الفرقة الإنجليزية الثانية، التي تمركزت عند مرتفعات "إنكيرمان"، حيث جرى الإعداد للهجوم على المدينة. وبعد ما يقرب من عام تقريبا قضتها القوات الروسية في الدفاع البطولي عن المدينة، سقطت "سيفاستوبول" في سبتمبر ١٨٥٥.

بعد سقوط "سيفاستوبول" وإحكام السيطرة، عليها قرر القائد الأعلى لقوات التحالف "بيليسييه" مواصلة الهجوم في عمق شبة الجزيرة. ولتنفيذ تلك المهمة، أرسل ثلاث كتائب من سلاح الفرسان الفرنسي، بقيادة الجنرال "دالونفيل"، وثلاث فرق تحت قيادة المشير التركى "أحمد باشا". كانت فرقتان منهما تركية، أما الثالثة فكانت من قوات المشاة المصرية[٩١].

٨٨ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية، ملف ٤٥٢، حافظة ٤، وثيقة ٢٠٤، السطر ٩.
٨٩ «عبد الرحمن الرافعى» المرجع السابق، صـ ٤١ -٤٢.
٩٠ المرجع نفسه صـ٤٢.
٩١ «عمر طوسون». المرجع السابق، صـ١٢١.

حدثت مناوشات بسيطة ذات طابع تكتيكى، بين قوات الحلفاء والوحدات الروسية، لأن العمليات العسكرية في "طرابزون" وعلى مشارف "كارسوم" حازت أهمية استراتيجية ، حيث توجهت إليها فرقة حربية قوامها ٣ آلآف جندى مصرى . وهناك تكبدت هذه القوات خسائر فادحة ، والتي إزدادت بشدة إثر صقيع الشتاء الشديد عامى ١٨٥٥ـ١٨٥٦، بالإضافة إلى النقص الحاد في المواد الغذائية . أضف إلى ذلك تفشى وباء الكوليرا الذي كان يحصد ٨٠ نفساً [٩٢] يومياً .

انتهت العملية غير المحسوبة في "مينجريلى" ، التي قام بها "عمر باشا" بإلحاح وإصرار من قائد القوات الإنجليزية في القرم ، بالهزيمة الساحقة للجيش التركى . وأسرعت فلول الجيش التركي بركوب السفن . ولاذوا بالفرار ، وكان من ضمنهم أيضا الوحدات المصرية [٩٣] .

في نهاية عام ١٨٥٥ توقفت العمليات العسكرية . وفي الثالث عشر من فبراير عام ١٨٥٦ تم عقد هدنة . أما في الثلاثين من مارس خلال الجلسة الختامية لمؤتمر "باريس" تم التوقيع على معاهدة سلام .

بعد توقف الحرب بعث السلطان "عبد المجيد" فرماناً إلى "سعيد باشا" في بداية مايو عام ١٨٥٦ يشكره على ما قدمه من مساعدات . فقد قدمت مصر إلى الباب العالى جيشها وأسطولها ، و أمدته بالسلاح والذخائر والمساعدة المادية . ففي عهد "عباس باشا" تم تحويل مبلغ ٨٥ ألف جنيهاً مصرياً، وفي ديسمبر عام ١٨٥٣ تم إرسال ٢٥ ألف بندقية وفي أكتوبر من عام ١٨٥٤ أرسل حوالى ٣٦ مدفعاً ، و١٠٨٠ قذيفة [٩٤] .

على الرغم من أحداث حرب القرم ، فإن العلاقات بين مصر وروسيا لم تكن عدائية . يشهد على ذلك عرض الخديوى "اسماعيل" في عام ١٨٧٠ على الجنرال "فاديف" (١٨٢٤ـ١٨٨٣) تحديث الجيش المصري . قبل الجنرال هذا العرض عام ١٨٧٤ ، وكتب الجنرال إلى الخديوي : "أنا لا أعلم تحديداً لماذا وقع علىَ الاختيار من قبل الحكومة المصرية لأجل هذه المهمة هل لاستخدامه ضد تركيا أم ضد الأحباش ؟ فقد نمى إلى علمى، أن الحكومة المصرية منذ فترة تبحث عن أحد جنرالات

٩٢ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٨١ ، وثيقة ٦٨٧ ، السطر ٣١.

٩٣ «حسين أحمد» موسوعة تاريخ مصر، مجلد ٣، القاهرة، ١٩٨٥، صـ١٨٧; «الحاج مراد إبراهيمبيلي» القوقا في حروب القرم ١٨٥٣- ١٨٥٦ والعلاقات الدولية، موسكو، ١٩٧١، صـ ٣٣٥-٣٣٦.

٩٤ «عمر طوسون» المرجع السابق ، صـ ٢٢٠ ، ٢٤٦- ٢٤٨.

أوروبا ذائعى الصيت في هذا المجال، وبالطبع فإن اسمى مصادفة أصبح معروفاً لدى القاصى والدانى في الشرق وداخل الأراضي السلافية. فإذا كان الهدف هو تسليح الجيش ضد تركيا فأننى على استعداد أن أكرس نفسي لهذه المهمة. أما إذا كان الهدف من عملية التطوير هذه هو محاربة الأحباش، فضميرى لا يسمح لي بذلك ولن أقبلها...!"[٩٥]. قضى "فادييف" في مصر عامين، وغادرها في عام ١٨٧٦، وذلك عشية الحرب الروسية - التركية الجديدة وإحتفظ بعلاقة طيبة مع الحكومة المصرية، لاسيما علاقته الشخصية بالخديوى. وكانوا يعدون الجنرال "وزيرا للدفاع المصري" أثناء فترة إقامته داخل مصر. وقد وجه الخديوى إلى إنتهاج سياسات أكثر استقلالية مدركاً مدى الاستفادة من جراء الوقيعة بين مصر وتركيا، وتعزيز دور مصر وتحريرها من قبضة السلطان[٩٦] وبالمناسبة فإن بعض ممثلو الدوائر الدبلوماسية الروسية، كانوا يعولون على الدعم المصري في حالة نشوب حرب روسية تركية جديدة. غير أن القنصل الروسي العام في "القاهرة" "ليكس" أكد أن: "هذا غير حقيقى تماماً، حيث قد يقدم الخديوي على مثل هذه الخطوة فقط، بموافقة الإنجليز"[٩٧]. في واقع الأمر كانت مصر تعتبر حليفاً قوياً للباب العالي، وقد منع الخديوى السفن الروسية من العبور في قناة السويس بضغط من تركيا وإنجلترا، على الرغم من تأكيدات روسيا أنه ليس لديها أية نية لتهديد مصر، أو المساس بأمن الممر الملاحى عبر قناة السويس. وفي خطاب مستشار الدولة الأمير "جورتشكوف" للسفير الروسي في لندن الكونت "شوفالوف" مايلي: "أن مجلس الوزراء الإمبراطورى لا يرغب في محاصرة طريق الملاحة في قناة السويس، أو إيقافه أو تهديده بأي شكل من الأشكال حيث ينظر إلى قناة السويس على اعتبارها هيئة دولية تخدم تجارة العالم كله، وبالتالى يجب أن تكون بعيدة عن أي نوع من أنواع الصراع. إن مصر جزء من الإمبراطورية العثمانية ووحدات الجيش المصري تخدم داخل الجيش التركى؛ لذلك يمكن لروسيا أن تعتبر نفسها في حالة حرب ضد مصر. غير أن مجلس الوزراء الإمبراطوري يهتم بالمصالح الأوروبية في هذا البلد وتحديداً المصالح البريطانية؛ لذلك فإنه لن يدخل مصر في نطاق عملياته العسكرية"[٩٨].

٩٥ «ر. أ. فادييف» مجموعة مقالات، سانت بطرسبورج، ١٨٨٦، صـ ١١٩.

٩٦ المرجع نفسه.

٩٧ العلاقات الروسية المصرية في القرن التاسع عشر، موسكو، ١٩٦٠، صـ ٤٧ المرجع بواسطة "ج.ل. بوندروفسكى".

٩٨ الحرب الروسية التركية ١٨٧٧-١٨٧٨، سانت بطرسبورج، ١٨٧٩، صـ ٤٩-٣٠ المرجع بواسطة "خ.ف. سيديلينكوف".

من أجل إرضاء بريطانيا العظمى والإمبراطورية العثمانية ؛طلب الخديوى "اسماعيل" من القنصل العام الروسي مغادرة الأراضي المصرية، موضحاً أن بقاءه في القاهرة يعطي السلطان دافعاً ليشك في أن الخديوى يقيم علاقات مع العدو . لذلك فإن رحيل "ليكس" سيسهل الأمر للخديوي أن يتجنب مزاعم الباب العالي . في الوقت نفسه تفهمت "سان بطرسبورج" حاجة الخديوي الملحة في إبداء الدعم العسكري للسلطان ؛ لذلك فإن مشاركة مصر في الحرب الروسية التركية لم تترك أي آثار سلبية على طبيعة العلاقات المصرية الروسية . بالإضافة إلى ذلك أقامت الحكومة الروسية على وجه السرعة علاقات دبلوماسية مع مصر في محاولة منها لإضعاف الموقف الإنجليزي في مصر .

صورة لاسماعيل باشا قائد القوات المصريه في حرب القرم عام ١٨٥٥

جاء في التقرير الموجه للقيصر من وزارة الخارجية عن عام ١٨٧٦ : « أنه على الرغم من الوضع المالي الحرج جداً في مصر فقد اتخذ الخديوى قراراً بالمشاركة الفاعلة في الحرب الدائرة في شبه جزيرة البلقان . وبناءً على طلب من السلطان ، أرسل الخديوى بجاهزية عالية إلى القسطنطينية ، قوات مساعدة عبارة عن ٦ آلآف من جنود المشاة مزودة بكم هائل من المدفعية . وقد تم تسليح الجنود وتزويدهم بالذخيرة بشكل جيد . وفيما بعد تم زيادة عدد هذه الفرقة عن طريق إرسال الإمدادات لها» [٩٩].

٩٩ مصر بعيون الروس منتصف القرن التاسع عشر- أوائل القرن العشرين. السياسة. الإقتصاد الثقافة. الفنون، مقدمة، التعليقات، الفهرس والترجمة لجينادى جوريتشكين // شعوب الشرق الأوسط. الخامس عشر، المجلد الثانى. موسكو، ١٩٩٢ صـ ٤٦.

قدم المؤرخ «عبد الرحمن الرافعى» تفسيره الخاص للحرب في البلقان فقال : «إن روسيا قامت بتحريض إمارات البلقان على الإنتفاضة، وأعدت العدة للتدخل في هذه الأحداث بعد تشتيت ، وإنهاك القوات التركية في إخماد هذه القلاقل الداخلية . وأصبحت الانتفاضة داخل الهرسك عام ١٨٧٥ ذروة تلك القلاقل، وإمتدت شرارتها إلى البوسنة فيما بعد» . ساعدت «صربيا» المتمردين بشكل فعال ، ولهذا طالبت تركيا من الخديوي «اسماعيل» « نجدة»، فأرسل الخديوى على الفور ٧ آلآف جندى وضابط بقيادة الجنرال «رشيد باشا حسنى» وشارك الفيلق المصري في إطار الجيش التركي لإخماد ثورة السلاف[١٠٠] .

عند اندلاع الحرب الروسية – التركية الجديدة في إبريل عام ١٨٧٧ وجد المصريون أنفسهم في مواجهة الروس للمرة الثانية ، وكما حدث من قبل أثناء حرب " القرم" طلب السلطان المساعدة العسكرية من الخديوي " اسماعيل " والذي بدوره تلكأ في إرسالها؛ بسبب تردي الأوضاع المالية في البلاد ،ومواقف الدائنين غير المؤيدة لذلك ، وهذا ما أثار غضب الباب العالي .

خوفاً من ردة الفعل التركية إزاء ما حدث، وخوفه من أن يصبح وحيداً في مواجهة القوى الأوروبية، خاصةً في مثل هذه الظروف الصعبة . قرر الخديوى الامتثال لفرمان السلطان ، ولكي يتمكن من حل مشاكل تمويل الحملة الجديدة . عرض الأمر أمام المجلس الإستشارى للبحث والمناقشة ، والذي أقر مايسمى (ضريبة الحرب) والتي تمثل ١٠٪ من ميزانية الإيرادات العامة .

بهذه الأموال تم تجهيز حملة قوامها ١٢ ألف جندي ، كانت بقيادة نجل الحاكم " حسين باشا "[١٠١] وطبقاً لشهادة أركان الجيش الروسي ، أصبح لدى تركيا قوات قوامها ٣٧٧ ألف جندى من بينهم ١٢ ألف مصرى "[١٠٢] .

أشارت " المجلة البحرية " الروسية إلى أن الوضع الآن تماماً كما كان في السابق " فقد لجأت تركيا في حملتها الحالية ضد "روسيا " إلى طلب قوات عسكرية إضافية من "مصر" وأعلن المصدر نفسه أن الباب العالى أمر الخديوى بإرسال قوات قوامها ١٠ آلآف جندى

١٠٠ «عبد الرحمن الرافعى». المرجع السابق ، صـ ١٩٩- ٢٠٠.
١٠١ المرجع نفسه صـ ٢٠٠ .
١٠٢ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية. ملف ٤٨٥، مرجع سابق، حافظة ١، وثيقة ٧٥٣ ، السطر ٧٥.

وتألفت وحدات المشاة من ٦ آلآف جندى مشاة ، و١١٠٠ من سلاح الفرسان ، و٥٠٠ جندى مدفعية وأثنين بطاريات كروب . بالإضافة إلى ذلك أرسل الخديوي للسلطان على سبيل الهدية ٥٠٠ بندقية بنظام "ريمنجتن" ، ومليون خرطوش ، وبطارية ميدانية ، وثلاثة زوارق بخارية للخدمة في نهر "الدانوب" . تأخر إبحار الحملة العسكرية المصرية أسبوعين ـ حسب قول المصريين ـ بسبب ورود أنباء حول خروج الأسطول الروسي من أمريكا الذي لايعلم أحد إتجاه سيره ، وبالتالي إحتمالات التقائه بالحملة البرمائية كانت كبيرة، وإننا لايمكن أن نخاطر بسفننا ورجالنا حتى من أجل تركيا" . لم تكن هناك أي صعوبة في معرفة سبب هذه المخاطرة، فقد كانوا يعلمون جيدا تاريخ المعارك البحرية بين روسيا ومصر . ولم تغادر الحملة المصرية ميناء الإسكندرية إلا بعد وصول قافلة تركية مرافقة للحراسة قوامها ٤ سفن حربية في الحادي عشر من مايو عام ١٨٧٧. وبعد خمسة أيام تم إرسال تعزيزات جديدة إلى القسطنطينية قوامها ٣ آلآف جندي[١٠٣] .

مشاركة المصريين في الحرب ضد "روسيا" يمكن أن تكون سبباً قوياً ورسمياً لجفاء العلاقات مع الدولة المصرية ، غير أن هذا لم يحدث لعدة أسباب منها أولاً : عزلة روسيا السياسية في أوروبا في ذلك الوقت، ومصالحها في الشرق حتمت على الدبلوماسيين التابعين للقيصر تبني سياسات مرنة تجاه مصر ، ثانياً : أرادت "روسيا" إضعاف عدوها الأبدي – الإمبراطورية العثمانية ـ آملة مع مرور الوقت أن تجعل مصر أحد حلفائها ؛ولذلك نجد أن إشتراك القوات المصرية في الحروب الروسية التركية في النصف الثانى من القرن التاسع عشر لم تلق بظلالها على أواصر الصداقة بين البلدين بشكل عام . غير أنه وبإنتهاء الحرب (١٨٧٨ـ١٨٧٧) لفتت الخارجية الروسية انتباه القنصل العام في القاهرة "ليكس" إلى أنه : " يجب السعى في المقام الأول وبقدر الإمكان إلى إضعاف النفوذ الإنجليزى ، الذي أحرز تفوقاً حاسماً في مصر" . لذلك تم تكليفه بتجنب التدخل المباشر في شئون حكم مصر، ولكن يعمل على إحداث تأثير شخصي على الخديو و الوزراء ، وإبلاغهم أنه على الرغم من أعمالهم العدائية ضد "روسيا" خلال الحرب الأخيرة ، فإن حكومة القيصر لا تزال تنظر بعين العطف للمصالح المصرية "[١٠٤] .

١٠٣ مجموعة البحر، سانت بطرسبورج، ١٨٧٧، عدد ٧، صـ ٦٩ – ٧٣، المرجع نفسه عدد ٨ ، صـ ٨٤-٩٢ .

١٠٤ «مصر بعيون الروس» صـــ ٤٨.

خلال الحروب الروسية ـ التركية تواجدت القوات المصرية في " أدرنة ، ودبروجة ، وبازارد جيك (شوملا)، شيبكا ، وسالونيك ، وصوفيا، والقسطنطينية" وبنهاية الحرب في يناير عام ١٨٧٨ كانت الحملة المصرية التي بلغ قوامها ٥ آلآف جندى متمركزة في "فارنا" [١٠٥].

جاء في مذكرات "نيميروفيتش ـ دانتشينكو" أن المصريين خاضوا الحرب ضد الجيش الروسي في " أدرنة" ، ووقعت وحداتهم الخلفية و "قوافل ضخمة من العربات ومائة جمل" [١٠٦] في الأسر [١٠٧]. وأسر الروس الكثير من الجمالين ، والحوذيين ، وعمال خدمة من الوحدات الخلفية. ووفقا لتقديراتنا بلغ العدد الإجمالى لقوات المشاة المصرية عامى (١٨٧٧ـ ١٨٧٨) ٢٠ ألف جندى تقريباً .

كانت للحرب نتائج كارثية على الجيش العثمانى . واستناداً إلى البيانات الأرشيفية، تجاوز العدد الإجمالى للأسرى ١٤٠ ألف شخص وتم تقسيمهم إلى مجموعات صغيرة تصل المجموعة الواحدة إلى بضع عشرات ، وتم توزيعهم على ١٦١ مدينة روسية في القطاع الأوروبي (ووفقاً لمعلومات أخرى ـ ١٧٢ مدينة) . ووفقا لتقديرات "بيلياكوف" بلغ عدد الأسرى المصريين ٨ آلاف شخص تقريباً [١٠٨] .

لخدمة هذا العدد الهائل من الأسرى ، من رعايا الإمبراطورية العثمانية ، تم إنشاء لجنة خاصة تعني بشئون الأسرى العسكريين برئاسة القائد العام الأمير "جوليتسين" . وضمت هذه اللجنة العاملين في مجال الصحة بشكل أساسي ، وكان من مهام هذه اللجنة تفقد الأسرى ، وتفقد أحوالهم المعيشية ، وتوفير العلاج ، والإستماع إلى شكواهم وطلباتهم وكانت ترسل تقاريرها إلى العاصمة .

تم استئجار شقق للباشوات والضباط ، كما حصلوا أيضا على رواتب : بلغ راتب الباشا في العام ١٠٢٧ ، وبلغ راتب الضباط من ٢٧٦ – ٤٤١ روبل ، كل حسب رتبته . وأودع الجنود والرقباء داخل مساكن ، توازى الثكنات الحربية المخصصة للدرجات المماثلة من الجيش الروسي .

١٠٥ جمع مواد بشأن الحرب الروسية / التركية ١٨٧٧- ١٨٧٨، عدد ١٢، سانت بطرسبورج، ١٩٠٣ صـ ٩٠ ، ١٤٥ .

١٠٦ «ف. ي. نيميروفيتش-دانتشينكو» سنة الحرب، سانت بطرسبورج، ١٨٧٨، مجلد ٢، صـ ١٩٩.

١٠٧ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٠٠ ، حافظة ٣٠ ، وثيقة ٢٠٣٨ ، السطر ١٠٦-١٠٧ المرجع نفسه ، وثيقة ٢٠٤٧ ، السطر ١٠٦-١٩٧ .

١٠٨ «فلاديمير بيلياكوف» الأسرى المصريون في روسيا (النصف الثانى القرن التاسع عشر) // الجغرافيا السياسية . الأمن . ٢٠٠٥ ، الجزء ٩، صـ ٤٥١ .

كانت الحصص الغذائية توزع طبقاً للأعراف التركية حيث تم استبدال الخبز الأسود بالخبز الأبيض ، كانت التكلفة واحدة ، ولكن الوزن كان مختلفاً وتم إستبدال حساء الكرنب الروسي المعتاد بحساء الحبوب . وحصل الأسرى العسكريون على ملابس شتوية ثقيلة، وأحذية كما تمتعوا بكامل الرعاية الصحية التي تقدم للجنود الروس [١٠٩] .

خالط الأسرى سكان المدن التي أقاموا فيها ربما يمكنهم ذلك على الأقل من العثور على وظيفة ما . وخلال فترة إقامتهم كانوا يعطون السلطات نصف الراتب للإنفاق على الإعاشة، والجزء المتبقى يمكن للأسرى إنفاقه حسب رغباتهم ، بما في ذلك توفيره للأهل. علاوة على ذلك ، كان يمكنهم التحرك بحرية في نطاق المناطق السكنية المختلفة، حيث يقطنون ، كما أن الباشوات والضباط كان لهم مطلق الحرية في تغيير مكان إقامتهم .

بناءً على توصيات مؤتمر "برلين" ، بدأ إرسال الأسرى إلى وطنهم إبتداءً من ديسمبر ١٨٧٨ – عن طريق أوديسا ـ سيفاستوبول ـ القسطنطينية – الإسكندرية . وفي سبتمبر ١٨٨٠ أعلنت هيئة الأركان الروسية أنه لم يبق في روسيا أحد من الأسرى العسكريين [١١٠]، وأن السبب الرئيس في تأخر عودتهم هو انتشارهم في طول البلاد وعرضها ، وإرتفاع أعداد المرضى والجرحى الذين كانوا يتلقون العلاج داخل المستشفيات العسكرية الروسية .

وقوع الجنود المصريين في الأسر خلال الحرب التركية الروسية وانتشارهم في العديد من المدن الروسية في القطاع الأوروبي ، أدى إلى ظهور بعض الحقائق المثيرة للاهتمام. كان من بينها أن عدداً من الأسرى المصريين ، قرر البقاء داخل الأراضي الروسية وتجنسوا بالجنسية الروسية عن طيب خاطر وتنصر بعضهم واتخذوا لأنفسهم أسماء روسية [١١١] .

على مدار عامين أو ثلاثة منذ وقوعهم في الأسر ، لم يشعر المصريون بأي مشاعر عداء تجاه الروس ، بل دائماً ما يتذكرونهم بحفاوة ، وكذلك يتذكرون الموسكوفي "العجيب" غير المعلوم لديهم حتى اليوم ، أضف إلى ذلك ظلت ذاكرتهم التاريخية قوية فيما يخص هذا الشأن [١١٢] .

١٠٩ لمزيد من التفاصيل أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» . المرجع نفسه ، صـ ٤٥٢ .
١١٠ الأرشيف التاريخى للدولة العسكرية الروسية ملف ٤٠٠ ، حافظة ٣ ، وثيقة ٢١٠٧ ، السطر ١٤
١١١ «فلاديمير بيلياكوف» . المرجع السابق ، صـ ٤٥٣ .
١١٢ لمزيد من التفاصيل أنظر : «فلاديمير بيلياكوف» «بلدية موسكو – حسنا..» // آسيا وأفريقيا اليوم ، عدد ٨ ، ٢٠٠٩. صـ ٦٠- ٦١ .

أعلن العقيد "سوللوجوب" بعد لقائه سكان مدينة "بلبيس" ومدن أخرى في الدلتا المصرية عن تعاطف المصريين تجاه الروس، وقد عبروا عن ذلك مباشرة، بعد هزيمة جيش" أحمد عرابى باشا "في الحرب التي خاضها ضد الإنجليز بالقرب من "التل الكبير" عام ١٨٨٢ ...وقد كتب أن المصريين ما فتئوا يرددون كلمتي "مسكوف" و "روسي" وكانوا يشعرون بالسعادة لرؤيته، والتحدث مع الروس. إعتبر المصريون الروس بمثابة أعداء للإنجليز، وكانوا يتساءلون : "هل ستحتل روسيا لندن ؟" و هل لدى "سوللوجوب" رسائل من الحكومة الروسية تمنع إنجلترا من احتلال مصر؟ وأن هذه الرسائل لابد، وأنه قد تم إرسالها كما سمعوا هم بذلك" . استطرد "سوللوجوب" : "أن هؤلاء العرب أوضحوا لى أن "عرابي باشا" قبل الإستسلام ألقى بالعلم الروسي، ثم أعرب بعد ذلك عن ثقته في الروس وكراهيته للإنجليز". في وقت لاحق واصل المصريون المحيطون بـ"سوللوجوب" التأكيد على حب واحترام الروس ورفضهم البقشيش المقدم لهم من الروس، مقابل ما يقدمونه من خدمات لهم [١١٣].

جعلت تبعية مصر للإمبراطورية العثمانية في النصف الثانى من القرن التاسع عشر المصريين يصطدمون بالروس، خلال تلك الفترة مرتين على أرض المعركة، غير أن هذا لم يفسد العلاقات بين البلدين. لقد تفهموا في "سان بطرسبورج" آنذاك الظروف القاهرة التي أجبرت المصريين على المشاركة في الحروب ضد "روسيا"، في حين أدركوا في "القاهرة" اهتمام "روسيا" أن تكون مصر قوية، ومستقلة في هذا الجزء الواقع على أطراف الإمبراطورية العثمانية. أما فيما يتعلق بوجود المصريين في الأسر داخل "روسيا"، فقد عزز من تعاطف المصريين.

١١٣ «مصر في عيون الروس» صـ ١٤٩- ١٥٠ .